

تقرير

يسعد مجلة الآداب أن تستضيف الدكتور محمد مفتاح باعتباره واحداً من أهمّ العلامات النقدية والفكرية في الساحة الثقافية المغربية والعربية على حدّ سواء. كما تشكر المجلة الأساتذة المشاركين في هذه الندوة وترحب بهم: الدكتور سعيد يقطين، والدكتور عبد المجيد النوسي، والأستاذ بشير القمري، والأستاذ أبو بكر العزاوي.

إن التفكير في اقتحام مشروع «مفتاح» النقدي والفكري، في هذه الآونة بالذات، تتحكم فيه شروط ذاتية، مرتبطة بالمشروع في حدّ ذاته، وشروط موضوعية ترتبها الى السياق العام الذي يتحرك ضمنه هذا المشروع. ويمكننا حصر هذه الشروط في النقاط التالية:

(١) ما يطرحه النقد العربي من إشكاليات توظيف المناهج والنظريات العلمية الغربية. ذلك أن أي مشروع نقدي أو فكري لن يصل الى نتائج ذات قيمة علمية ما لم يتمثل هذه الإشكاليات وي طرح سبلاً واضحة للتعامل معها. وفي مشروع مفتاح نلمس رغبة تادية دور المتفحص للنظريات والمناهج، والمدقق في المفاهيم في بُغْدَيْهَا الفلسفي والتاريخي؛ وهو ما يضيف الجدية على كل أعماله ويجعل منها - بحق - مدرسة للباحث يتعلم في فضائها كيف ينظر إلى المفاهيم ويستثمر النظريات ويؤسس بنيان استراتيجيته الخاصة.

(٢) لم تعد حركية الفكر والنقد العربيين محدودة الرقعة الجغرافية، بل اتسعت مساحتها لتشمل بؤراً جديدة في الوطن العربي، بدأت تساهم - وبشكل فعال - في رسم معالم جديدة لتاريخ الثقافة العربية؛ وهو ما حقق ذلك التنوع والتعدد في المقاربات والمعالجات. وفي مشروع مفتاح تحقق نوع من هذا التميز.

(٣) التفكير في تجربة تحدّد، مسبقاً، استراتيجيتها وفق قواعد منهج علمي رصين. وهو ما يجعل التعاطي معها أمراً صعباً، وذلك راجع الى عاملين أساسيين:

١ - تخلف الجامعات العربية عن مواكبة التطورات العلمية الحاصلة في مجالات علمية متعدّدة.

ب - طغيان الطابع الحدسي الانطباعي على مجمل ما يُنتج من نقود؛ وهو ما جعل القارئ العربي يرتاح لأساليب التلقّي الساذج للنصوص والظواهر ويتوقف عن بذل جهود إضافية لاستكمال معرفته بالنظريات والمناهج العلمية.

هذان العاملان جعلتا الكثير من المشاريع الفكرية والنقدية العربية لا تلقى الاهتمام الكافي، فبقيت في حكم المهتمّش واللامفكر فيه. وفي اعتقادنا أن مشروع محمد مفتاح واحد من هذه المشروعات العربية المحكومة باللامبالاة والتهميش نظراً لعلميتها ورسالتها ومخالفتها للذوق «النقدي» العربي العام.

ج - ضرورة الانخراط الفعلي والإيجابي في الحركة العلمية العالمية، والأخذ بالطرق الحديثة في التعامل مع الوقائع والنصوص. ولن يتم لنا ذلك إلا إذا انفتحنا على بعض ما تحقق في عالمنا العربي من إنجازات فكرية وعلمية وأوليناها ما تستحقه من الاعتبار والتقدير.

هذه هي جملة شروط تجعلنا نختار مشروع محمد مفتاح الفكري والنقدي موضوعاً للتحليل والنقاش. والوقوف عند هذا المشروع يمثل، في تقديرنا، وقوفاً عند منعطف بارز في تاريخ النقد والفكر المغربيين والعربيين على حدّ سواء: فكلاهما بدأ يخط لنفسه مساراً جديداً في استقصاء القضايا وتحليل الظواهر واستنطاق النصوص، وهو مسارٌ ينضبط لقواعد «التجريب»، بمعناه الإيجابي، والمقصود: اختيار المناهج وروؤز النظريات قصد خلق نوعٍ من التفاعل الإيجابي مع موضوعات الدراسة والتحليل.

يساهم محمد مفتاح في بلورة مشروع ثقافي متكامل ومتميز يجمع - إلى جانب تمثل النظريات العلمية الحديثة ومحاورتها وصياغة أسئلة خاصة بشروط التفكير العربي - الاهتمام البالغ بالتراث باعتباره محملاً بهموم الذات والهوية العربيتين من جهة، ومنفتحاً على كل ما هو إنساني كوني من جهة ثانية. وقد وظّف الكاتب من أجل ذلك آليات منهجية شمولية، تبحث في الكليات والخصائص الكونية للتفكير الإنساني أكثر من انشغالها بإبراز معادل الخصوصية الثقافية الضيقة فيه.

هذه الرؤية المنهجية الشمولية عند محمد مفتاح تقوم على المقاربة النسقية، سواء على مستوى التخطيط أو على مستوى الإنجاز. ومثل هذه الرؤية جعلت من محمد مفتاح باحثاً متعدد الاختصاصات يدرك، منذ البدء، أنّ النقد الأدبي لم يفلح في تكوين نموذج الخاص به. لذلك ارتأى التنقل بين العلوم باحثاً عن آليات صناعة نظرية ملائمة، خاضعة، باستمرار، للاختبار وللروز وللتطوير.

أمن محمد مفتاح بأن مشكلتنا الجوهرية كامنة في غياب قدرتنا على إنتاج النظريات والمفاهيم لسبب وحيد: هو أننا لا ننتج العلوم ولا نساهم في تطويرها. لذلك نراه يعمل جاهداً على تكييف مفاهيمه وفق استراتيجية محددة المعالم والأهداف. فرغم إيمانه بدور النقد الحداثي الانطباعي في إنتاج علاقة خاصة بالنصوص، إلا أنه يظل متمسكاً بضرورة أن يتسلح الباحث بترسانة مفاهيمية ونظرية تساعده على بلورة استراتيجيته التي يختارها وتُحتم عليه تنظيم أدواته وإخضاع أعماله لمبضع الصرامة العلمية ولمعيار الرصانة المعرفية.

عرّف مشروع مفتاح مسارات متعددة، سيشير إليها في ورقته التقديمية. وحتى لا نكرّ ما ستحفل به الورقة من تفاصيل عن هذه المسارات، وما سيعقب به الأخوة الأساتذة الذين يشاركوننا مشروع مفتاح، إضافة إلى الدراسة القيمة التي خصّ بها الدكتور مفتاح مجلة الآداب (وتُشر في مكان آخر من هذا العدد) - وهي الدراسة التي تؤشّر على عمق التحولات التي يعرفها، رهنأ مشروع النقد - أقول: لأجل عدم التكرار، سنكتفي، هنا، بالإشارة إلى الأعمال الصادرة للدكتور محمد مفتاح والتي تشير من خلال سياقها الزمن والعناوين التي تحملها إلى سمات هذه المسارات وخصوصياتها:

- في سيمياء الشعر القديم (دار الثقافة، ١٩٨٢)؛

- تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص (المركز الثقافي العربي، ١٩٨٥)؛

- دينامية النص: تنظير وإنجاز (المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧)؛

- ديوان ابن الخطيب: تحقيق ودراسة (دار الثقافة، ١٩٨٩)؛

- مجهول البيان (دار توبقال، ١٩٩٠)؛

- التلقي والتأويل: مقارنة نسقية (المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤)؛

- التشابه والاختلاف: نحو منهجية شمولية (المركز الثقافي العربي، ١٩٩٦)؛

- الخطاب الصوفي: مقارنة وظيفية (مكتبة الرشاد، ١٩٩٦).

نعطي الكلمة في البداية للدكتور مفتاح ليقدم ورقته التاثيرية لهذه الندوة على أن ننتقل بعدها إلى مرحلة التعقيب والمناقشة من خلال المحور الأول الذي خصصناه للبحث في «أسس التعامل مع النظريات الغربية في الخطاب النقدي لمحمد مفتاح، مسترشدين بأسئلة توجيهية: كيف يستحضر مفتاح «النظرية» في إنجازاته النقدية والفكرية؟ وما طبيعة العلاقة التي تربطه بالمفاهيم التي يوظفها؟ وإلى أي حد استطاع أن يضع نظرية تميز خطابه النقدي والفكري؟

ع. لبيض